الحياة الطيّبة
السنة 21
العدد 37
صيف 2017 م

الافتتاحيّة

الأخلاق والعدالة شِرعَة المجتمعات

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين، وجميع أنبياء الله ورسله، وبعد...

أولاً: مفهوم الأخلاق:

الأخلاق لغة جمع خُلُق (بالضم)، والخُلُق (بالضم) والخَلْق (بالفتح) هما من مادّة لغويّة واحدة؛ ولكنّ الخَلْقَ (بالفتح) يُراد منه الشكل الظاهريّ للإنسان، في حين أنّ الخُلق (بالضم) يُراد منه الشَّكل الباطنيّ والنفسيّ. يقول الراغب في المفردات: «الخَلْقُ والخُلُق في الأصل واحد؛ كالشَّرْب والشُّرُب والصَرْم والصُرُم، لكنْ خصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[2]. وثمّة رأيٌ مماثل ذكره الطريحيّ، حيث قال: «الخُلُق بضمتين: السجيّة. والجمع أخلاق. الخُلُق: الدين والطبع والسجيّة. وعن بعض الشارحين: حقيقة حسن

(1) رئيس التحرير.

(2) الأصفهانيّ، حسين (الراغب): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط2، قم المقدّسة، سليمان زاده؛ طليعة النور، 1427هـ.ق، مادّة «خَلَقَ»، ص297.

الخلق أنّه لصورة الإنسان الباطنة؛ وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصّة بها بمنزلة الخلق لصوره الظاهرة وأوصافها ومعانيه، ولها أوصاف حسنة وقبيحة»[1]. والخُلق (بالضم) في الاصطلاح الأخلاقيّ هو عبارة عن «**ملكة نفسانيّة**». والملكة هي كيفيّة راسخة في النفس، لا تزول إلا بصعوبة، وهي توجب صدور الأفعال المناسبة لتلك الكيفيّة بيسرٍ وسهولة.

ويظهر ممّا تقدّم أنّ الأخلاق ملكة نفسانيّة؛ سواء أكانت من الفضائل أم من الرذائل، ولكنّ مفردة الأخلاق متى أُطلقت من دون تقييد بالفضيلة والرذيلة يكون المراد منها مطلق الكيفيّات النفسيّة الحسنة.

ثانياً: الأخلاق شرعة الاجتماع البشريّ:

أولت الشرائع السماويّة والأرضيّة الأخلاق والقيم الفرديّة والاجتماعيّة أهمّيّة قصوى، وكانت قضيّة الأخلاق والقيم من القضايا التي طرحها الفلاسفة منذ القدم ضمن أطروحة تربية الفرد وبناء المجتمع وحفظ كيان الدولة، وهي من الموضوعات التي اهتَمّ بها وعالجها كثيرٌ من المفكّرين. وكان البحث في موضوع الأخلاق، وكنهها، وكيفيّتها، وطريقة تحقيقها وتطبيقها في المجتمعات البشرية، وفي نفوس الناس، من الضروريّات الأساس لحياة الإنسان.

ولمّا جاء الدين الإسلاميّ بُعث رسول الله ﷺ بهدف تحقيق العدل والقسط، وتطبيق العدالة في المجتمع وفي نفوس الناس، ولإتمام مكارم الأخلاق. فعن الإمام السجاد عليه السلام، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**بُعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها**»[2]، حيث عمل رسول الله ﷺ على تطبيق الأخلاق وتحقيقها في جميع أبعاد الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، كما عمل على انتزاع الناس من عبوديّة الطواغيت إلى عبوديّة الله الواحد الأحد الذي

(1) الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ط2، طهران، مرتضوي، 1362هـ.ش، ج5، مادّة «خَلَقَ»، ص157-158.

(2) الطبرسيّ، علي: مشكاة الأنوار، تحقيق: مهدي هوشمند، ط1، دار الحديث، 1418هـ.ق، ص245.

لا يريد منهم إلّا العدالة والتوحيد. والعدالة هي احترام الحقوق بوضعها في مواضعها حسب النّظام الأتمّ التّكوينيّ. أمّا تطبيق الحدود الشّرعيّة والالتزام بالأحكام الإلهيّة؛ فإنّه وجهٌ آخر من وجوه احترام الحقوق؛ بل هو عينه؛ وليست الشّريعة سوى ذاك البرنامج الذي برعايته وتطبيقه تُصان الحقوق الفرديّة والاجتماعيّة، الظّاهريّة والباطنيّة.

ثالثاً: الأخلاق والعدالة الاجتماعيّة:

إنّ قضيّة العدالة مرتبطة بالإنسان؛ بوصفه موجوداً عاقلاً باحثاً عن الحقيقة، وهو في الوقت نفسه موجود حرّ ومختار، وميّال إلى اكتساب المعرفة وتطبيقها عمليًّا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت فطرته الإنسانيّة تدفعه -بوازع داخليّ- إلى حبّ العدالة. ولذا؛ كان يشعر على الدوام بالنفور من الظلم والجور، بينما كان ينظر إلى العدالة؛ بوصفها حبيباً يعشقه ويهواه.

والعدالة والأخـلاق فضيلتان يتوقّف عليهما تحوّل أنفس الأفـراد والمجتمعات. وهاتان الفضيلتان تخلقان في ذات الإنسان عقلاً واستقامة واعتدالاً، وفي نفوس المجتمعات الاستقامة، والمساواة، والاعتدال، والحرّيّة. وانعدام العدالة في المجتمع يُفضي إلى التمييز، والظلم، والفساد واضمحلال الوفاق العامّ. كما نستخلص من استقراء النصوص المقدّسة، وتاريخ الأديان الإلهيّة، أنّ الأنبياء عليهم السلام جاؤوا لبسط القسط والعدل في المجتمع، وكان الهدف من رسالاتهم أنْ يقوم الناس بالقسط، ويلتزموا فضائل الأخلاق في سلوكهم الفرديّ والاجتماعيّ.

والعدالة على حدّ تعبير الإمام الخميني قدس سره «من أمّهات الفضائل الأخلاقيّة، بل إنّ العدالة المطلقة حاوية لجميع الفضائل الباطنيّة والظاهريّة، والروحيّة والقلبيّة، والنّفسيّة والجسميّة؛ لأنّ العدل المطلق

هو الاستقامة بكلّ معانيها»[1]، و«إنّ الاعتدال الحقيقيّ لا يتيسّر إلّا للإنسان الكامل»[2]، كما يذكر أنّ العدل «من الفضائل الإنسانيّة العظمى»، و«**به تحقّق غاية الكمال الإنسانيّ ومنتهى السّير الكماليّ؛ بل هو تحقّق هذا الكمال بعينه في أحد معانيه، وهو من مهمّات الأمور التي تؤدّي الغفلة عنها إلى خسرانٍ عظيم، وضررٍ جسيم، وشقاءٍ لا يمكن جبره**»[3].

وجاء في الأحاديث الشريفة أنّ «**العدل أحلى من العسل**»[4]، وأنّه «**من دعائم الإيمان**»[5]، وأنّه «**رأس الإيمان**»[6]، وأنّه «**ميزان الله في الأرض**»[7]. وأمّا في ما يتعلّق بعالم الوجود، فقد ذكرت الرّوايات أنّه «**بالعدل قامت السمّاوات والأرض**»[8].

وهذا غيضٌ من فيض الشّواهد التي تبيّن عظمة هذه الفضيلة وأهمّيتها. وإذا كان الجود من أشرف الفضائل، فإنّ العدل أفضل منه؛ كما جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا سُئل: أَيّهما أَفضل: العدل، أَو الجود؟ فقال: «**الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، والْجُودُ يُخْرِجُهَا عَنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا**»[9].

وجاء في الحديث: «**غاية العدل أنّ يعدل المرء في نفسه**»[10]، وهذا

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: جنود العقل والجهل، ترجمة: مؤسّسة أم القرى، ط1، بيروت، دار المحجّة البيضاء، 2003م، ص143.
(2) م.ن، ص149.
(3) م.ن.
(4) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط5، طهران، مطبعة حيدري، 1363هـ.ش، ج1، ص542.
(5) م.ن، ج2، ص50.
(6) النّوريّ الطبرسيّ، حسين: مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط2، بيروت، 1408هـ.ق/ 1988م، ج11، ص319.
(7) م.ن، ص317.
(8) الإحسائيّ، ابن أبي جمهور: عوالي اللآلي، تحقيق: مجتبى العراقيّ، ط1، قم المقدّسة، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، 1405هـ.ق/ 1985م، ج4، ص103.
(9) العلويّ، محمد بن الحسين بن موسى (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ج4، دار الذخائر، مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ح437، ص102.
(10) النّوريّ، مستدرك الوسائل، م.س، ج11، ص318.

الحديث يفتح بابًا واسعًا للبحث عن علاقة العدالة الفرديّة بالاجتماعيّة. لكنْ ما يمكن أن يُقال بما يتناسب مع هذه الأوراق: أنّ سعي الفرد لإقامة العدالة الاجتماعيّة هو أفضل طريق وأسرعها لتحقيق العدالة في النّفس؛ على قاعدة: «**وأمر بالمعروف تكن من أهله**»[1].

وعلى صعيد آخر يمثّل العدل -في الرؤية القرآنيّة- صفة وملكة فرديّة واجتماعيّة، تنبثق جذورها من فطرة الناس؛ بمعنى أنّ في فطرة الإنسان وفي خلقته ميلاً إلى العدالة، ونفوراً من الظلم والجور والتمييز. وهذه حقيقة يستشعرها المرء في ذاته، وتحكم بها فطرته، حتّى وإنْ شغله عنها الانهماك في الأسباب الظاهريّة والأمور الدنيويّة. ولهذا السبب لا يدعو القرآن الإنسان إلى شيءٍ خارج وجوده وعقله وفطرته. وإذا كان قد دعاه إلى العدل؛ فمعنى ذلك أنّ للعدل امتداداً في ذاته.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، أمر الله عزّ وجلّ الناس -وبخاصّةٍ المؤمنين- أنْ يقيموا العدل والقسط. وقد أَكّد الباري تعالى بشكل مستمرّ ومتواصل على القيام للعدالة وتطبيقها في جميع أبعاد حياة الإنسان، وعندما نتأمّل في نماذج من آيات القرآن الكريم، فإنّنا نجد أنّها ترسم منهجاً متكاملاً في الحثّ على العدالة الاجتماعيّة؛ بل تعدّها أصلاً حاكماً على العلاقات الفرديّة والاجتماعيّة، وعلى ضوئها تنتظم الأمور في جميع مفاصل المجتمع وفي كيانه كلّه؛ ومنها:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]: وهي تبيّن أنّ الله يأمر بالعدل والإحسان... وينهى عن البغي.
- ﴿... وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾[3]: وهي تفيد أنّ مهمّة الرسول ﷺ تحقيق العدل بين الناس.

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج3، رسالة31، ص39.
(2) سورة النحل، الآية 90.
(3) سورة الشورى، الآية 15.

- ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1]: وهي تدعو إلى التمسّك بالعدل في الحياة الأسرية وبين الأزواج.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2]: وهي تؤكّد على التزام العدل حتّى في حالة العداوة، وتعدّ ذلك أقرب إلى التقوى.
- ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...﴾[3]: وهي توصي بالعدل في القول والعمل، سواء كان بنفع الأقارب أو ضررهم.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾[4]: وهي تأمر بالعدل في كتابة العقود وتوقيعها.
- ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾[5]: وهي تأمر بالحكم بين الناس بالعدل.
- ﴿... فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[6]: وهي تدعو إلى إقامة الصلح على أساس العدل.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ...﴾[7]: وهي

(1) سورة النساء، الآيتان 3، 129.
(2) سورة المائدة، الآية 8.
(3) سورة الأنعام، الآية 152.
(4) سورة البقرة، الآية 282.
(5) سورة النساء، الآية 58.
(6) سورة الحجرات، الآية 9.
(7) سورة المائدة، الآية 95.

تشير إلى ضرورة أنْ يحكم ذوو العدل في الأمور.

رابعاً: تكامل العلاقة بين الأخلاق والقانون:

يشترك القانون والأخلاق في خصوصيّة هي البعد القِيَميّ الموجِّه للسلوك الإنسانيّ، ولكنّ آليَّات العمل في كلّ منهما تختلف عن الآخر، وأهمّ وجوه الاختلاف سوف ندرجها في ما يأتي:

- يعمل القانون ويتدخّل في توجيه سلوك الإنسان في المجال الاجتماعيّ. وأمَّا الأخلاق؛ فإنّها توجّه سلوك الإنسان الفرديّ والاجتماعيّ على حدّ سواء.
- يهدف القانون إلى تأمين سعادة الفرد والمجتمع على الصعيد المادّيّ والدنيويّ من خلال تنظيم العلاقات الاجتماعيّة. وأمَّا الأخلاق، فإنَّ لها هدفاً آخر؛ هو التكامل المعنويّ وتزكية النفس.
- تحتاج القواعد القانونيّة إلى سلطة تشرف على تطبيقها وضمان تنفيذها في ساحة المجتمع، وتعتمد السلطة إجراءات عقابيّة لكلّ من يخالف القواعد القانونيّة. وأمَّا الأخلاق، فإنَّ أهداف قواعده لا تتحقّق إلّا إذا تمّ الالتزام بمقتضياتها بشكلٍ طوعي من دون إجبار خارجيّ من أيّ جهة؛ كائنة من كانت.
- لا تؤدي النيّة والدوافع دوراً مهمّاً في إضفاء السمة القانونيّة على الأفعال، فلا يهتمّ القانون بنيّة الإنسان ودافعه إلى البيع أو الشراء أو ما شابه من التصرُّفات القانونيّة. وأمَّا الأخلاق، فإنّها تعطي للنيّة دوراً مهمّاً، ولا يتّصف الفعل بقيمةٍ أخلاقيّة إيجابيّة ما لم يكن صادراً عن نيّةٍ خالصة.

هذا، وإنّ أبرز وجوه الاشتراك بين الأخلاق والقانون يمكن عرضها في ما يأتي من نقاط؛ وهي:

- يلتقي القانون مع الأخلاق في بعض الموضوعات التي تمثّل نقطة اشتراك بين الطرفين. ومثال ذلك: السرقة، والأمانة؛ حيث إنّ لهذين العنوانين بعدًا قانونيًّا؛ من جهة تدخّل الدولة في منع السرقة وإلزام المواطنين

بحفظ الأمانة، كما إنّ لهما -أيضاً- بُعدَهما الأخلاقيّ؛ من جهة أثرهما في التكامل والانحطاط الروحيّ.

- لا بدّ للقانون من مراعاة الأخلاق على مستوى الأهداف والوسائل، فلا يمكن للقانون تحقيق أهدافه إذا كانت تتعارض مع القيم الأخلاقيّة للمجتمع الذي يُراد تطبيق القانون عليه.
- إنّ الأنظمة القانونيّة المنطلقة من الدِّين ترتبط بالأخلاق بأوثق رباط؛ وذلك لِمَا للأخلاق والقِيم الأخلاقيّة من موقع مهمّ في نظام القِيم الدِّينيّة. ويتأكّد هذا الارتباط عندما نلاحظ الإسلام على وجه التحديد، فهو يهدف من خلال نظامه القانونيّ إلى تربية الإنسان وإيصاله إلى مرحلة التكامل المعنويّ والروحيّ، وهذا التكامل هو الهدف المنشود من الأخلاق الإسلاميَّة. وعليه؛ لا يشاهد المراقب الدقيق لبنية النظام التشريعيّ الإسلاميّ أيّ لون من ألوان التعارض بين القوانين الإسلاميَّة وبين الأخلاق. وهذا امتيازٌ للقانون الإسلاميّ يدفع المسلمين إلى امتثال أحكامه بدافع الميل والرغبة.

وختاماً: إنّ العدالة في الإسلام هي معيارٌ لجميع الأمور الفرديّة والجماعيّة، والمعنويّة والمادّيّة، والجسميّة والروحيّة، والسياسيّة وغير السياسيّة، بحيث تتكامل مع الأخلاق؛ لتتجسّد في المشاعر، والفكر، والقول، والعمل؛ كي يكون للفرد والمجتمع مشاعر عادلة ومتّزنة، وكي يفكّروا تفكيراً عادلاً، ويكون كلامهم عادلاً، وسلوكهم عادلاً. وقد أكّد الرسول الأكرم ﷺ مرّات عديدة على العدل في العمل والسلوك، من قبل الفرد، سواء في ما يتّصل بعلاقته مع نفسه، أو مع ربّه، أو مع بقيّة أفراد المجتمع؛ فإذا حكمتم فاعدلوا...